اخترنا لك :

التصوف عند كتاب
في العصر الحاضر

للاستاذ الكبير عباس محمود العقاد

حديثنا اليوم فى موضوع عالمى . .

ويصح أن يوصف بأنه أكثر من عالمى ، لأننا اصطلحنا على وصف العالمية لكل شيء يشمل الكرة الأرضية أو يشمل الأمم الإنسانية جميعا ، فنتكلم عن الشهرة العالمية والشئون العالمية ، إذا كانت من مسائل الشرق والغرب أو مسائل القارات الخمس المصطلح عليها .

ولكن موضوع اليوم أكثر من عالمى بهذا المعنى ، لأنه يتناول عالم الدنيا وعالم الغيب ، ويتناول الأمور التى لا أول لها ولا آخر . وليست مقصورة على الكرة الأرضية ، ولا على المنظومة الشمسية ، بل تمتد وراء ذلك إلى غير نهاية فى الزمن ولا فى أجواز الفضاء .

موضوعنا اليوم هو «التصوف»

وهو موضوع فى هـــذا العصر لم يحتكره رجال الدين ولا أصحاب الأسرار الدينية ، ولا تقرأه فئة محدودة من المختصين فى مسائل الفلسفة وماوراء الطبيعة ، بل هو من موضوعات كل يوم وكل طائفة من القراء المهتمين بالمسائل العصرية ولا ينقضى أسبوع أو شهر على الأكثر دون أن يظهر فيه كتاب

سهل بسيط يناسب كل قارىء وقارئة ، وتدور عليه مناقشات فى البيوت والمجالس التى تعودت أن يكون حديثها فى الموضوعات اليومية العامة ، كالسياسة والقصص ومناظر الصور المتحركة .

ونحن نتناول الموضوع أولا من هذه الناحية : ناحية الإقبال على البحوث الدينية فى العصر الحاضر ، فلا نتوسع فى شرح الآراء والمذاهب التى اشتمل عليها الكتاب ، بل نتوسع فى هذه الظاهرة الجديدة التى تلاحظ على أنواع الدراسات والقراءات فى هذه الأيام ، ولم تلاحظ من قبل على فترة من الزمن قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم الحرب العالمية الثانية على الخصوص ، هذه الظاهرة وحدها تستحق الاهتمام بها والتحدث فيها .

لماذا يكثر الإقبال على المباحث الدينية فى السنوات الأخيرة ؟

الجواب البسيط السريع على ذلك أن الإقبال عليها دليل على الحاجة إليها وهذه الحاجة إليها تلخص كل الأسباب وكل البواعث التى تدعو إلى الاهتمام بأمر من الأمور .

فى كل عصر من العصور يهتم الإنسان بمعرفة المصير ، ويهتم بالوقوف على حقيقة الحياة .

إن الناس فى القرن التاسع عشر وفى القرن الثامن عشر وفى القرن الأول للميلاد ، وفيما قبل ذلك من القرون — كانوا يهتمون بمعرفة مصيرهم ويهتمون بالوقوف على معنى حياتهم وحقيقة وجودهم .

ولكنهم فى القرن الماضى على الخصوص ، خطر لهم أن العلم الحديث كفيل بمعرفة كل شىء ، وبالكشف عن كل سر ، وبالهداية إلى أصل الحياة وحقيقة الوجود ، فتركوا كل بحث غير البحوث التى تنسب إلى العلم الحديث وتركوا كل وصف غير الصفة العلمية لكل مسألة تستحق العناية وتحسب من المسائل الجديدة الجديرة بالعقل الراجح السليم .

بدأت هذه النزعة الجامحة فى أواخر القرن الثامن عشر .

بدأت مع الثورة الفرنسية ، يوم خيل إلى الناس أنهم يهدمون الدنيا من قواعدها ويعيدون بناءها من جديد ، وأنهم لأجل ذلك يغيرون الشهور والأيام ويستبدلون التقويم الجديد بكل تقويم قديم .

وفى نوبة من نوبات الاندفاع مع التيار الجارف علت الصيحة بعبادة الحكمة ونبذ العبادات الأولى بجميع شعائرها وفرائضها ، وراح القائمون بهذه العبادة العصرية يبحثون عن تمثال حى للحكمة يعرضونه للأنظار ويتوجهون إليه بالاعجاب ثم يرتفعون بالاعجاب مع الخيال والنشوة الحسية إلى ما وراء الاعجاب : يرتفعون به إلى العبادة والتقديس .

فاختار كهان هذا الدين فتة من الفتيات الجميلات ، وابتدأوا بأجملهن الآنسه كوندي الممثلة الراقصة بدار الأوبرا وأقاموها فى زينة شفافة بمحراب الصلاة فى كنيسة نوتردام الكبرى ، وجاءوا بعدها بربات من الأنس يضارعنها فى الجمال ، ومنهن مدام مومورو زوجة الطباع المشهور ، والممثلة الآنسة مايار وزميلتها الآنسة أوبراى وخيل إليهم أنهم ظفروا بثروة من الربات والالاهات تغنيهم عن الاصنام القديمة وعن الاله الأعظم الذى يدان فى جميع العبادات .

كان ذلك فى الشهرين الأخيرين من سنة (١٧٩٣) . . أى فى أواخر القرن الثامن عشر وعلى مقربة من مفتتح القرن الذى يليه : عصر العلم والنور .

ومضى على هذه الثورة ، أو على هذه النوبة ، قرن وزيادة على نصف قرن آخر فلا حاجة إلى الافاضة فى نتائجها والسخرية من حماقتها : حماقة الحكمة المعبودة ، فانها حماقة لاتخفى على الحكماء ، ولا على الحمق فى هذه الآونة .

وإنما نلخص النتيجة بظاهرة تتعلق ببلاد الثورة الفرنسية نفسها : نلخصها بحكمة النابغين من كتابها ودعاة التحرير فيها ، وهم كتابها الذين اتجهت اليهم أكبر الجوائز الادبية العالمية ، وكلهم غير منكرين ان لم نقل انهم كلهم مغرضون وإذا شئنا التعبير الحر المحكم جاز لنا أن نقول أنهم ليس فيهم من لم يسخر من حماقة عباد الحكمة فى محراب نوتردام .

ما الذى حدث فى القرن التاسع عشر مما غير هذا الاتجاه ؟

أما أن الاتجاه قد تغير فهو واقع لاشك فيه ، لأن تلك البداية وقفت عند خطوتها الأولى فكانت هى النهاية فى حينها وجاء بعدها فيلسوف قضى زمناً من حياته الناضجة فى مستشفى الأمراض

العقلية فألف ديانة جديدة سماها الديانة الوضعية ووزعها بين الأنبياء الأسبقين فجعل لكل نبي حصة متتابعة ، وأياماً وأسابيع يصلي فيها المصلون باسمه وعلى منهاجه ، ثم انطوى كتابه الذى بسط فيه هذا الدين : دين الحكمة من مستشفى الأمراض العقلية ، فليس من ينظر فيه اليـــوم إلا على سبيل التسلية والاعتبار .

ذلك الفيلسوف هو « أوجست كونت » ، امام الوضعيين وعبرته البالغة انه لم يستطع أن ينبذ الدين جملة فعلم الناس أنهم يحتاجون إلى اختراعه ان لم يجدوه ، وانهم يفرضونه على أنفسهم طائعين إن لم يفرض عليهم مسلمين او مستسلمين .

ما الذى غير اتجاه العقل الانسانى فى القرن التاسع عشر ؟

الذى غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيرا فى دعواه : يدعى أنه يصف ما يحسه ولا يزيد .

لا نريد أن نقول إن العلم أخفق فى تعزية الانسان وتعمير قلبه وضميره ، كلا ، بل نريد أكثر من ذلك .. نريد أنه أخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقا أن ينجح فيها ، لان اصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادى » .. وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة فى فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعاً ، وكل شعاع هو حركة فى الاثير .. وما الأثير؟.. شىء كلا شىء ليست له حدود ولا أوصاف ولا مقادير يعرفها العلماء . .

فالعلم المادى لا يعرف المادة الا فى هذه الحدود ، ومن الادب إذن أن يتواضع كثيراً ، فلا يحتكر المعرفة ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا .

وهذا هو الجديد على العلم الحديث . علم العلم أنه لا يعلم كل شىء لانه مقيد بالحواس . .

وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الاشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟

كلا أيضا لان الفكر محدود ككل شىء فى الانسان ..

فلابد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير .

لابدلها من البصيرة ، أو من البديهة ، أومن الالهام ، وذاك هو مجال التصوف أو مجال الدين . فهذه هى المعرفة التى يتعاون عليها الحس والفكر والالهام .

ومن ثم تكثر الكتابة اليوم فى مسائل التصوف ومسائل الدين ، ومنها مباحث هذا الكتاب .

هذا الكتاب يسمى « مقدمة للمقارنة فى مذاهب التصوف » ، ومؤلفه الأستاذ جاك دى ماركيت وفصوله تتناول المقارنة بين تصـــوف الهند وتصوف المسيحية وتصوف الإسلام .

ونحن لا نريد أن ننقل شيئاً من صميم مباحثه ، ولكن هذا لا يمنعنا أن نخرج بخلاصة من كل مذهب أو كل مجموعة من المذاهب ، وفى كل خلاصة دليل على شىء كثير .

فخلاصة التصوف الهندى تحذير المرء من شهواته وتحذيره من قمع هذه الشهوات بالعنف والقسوة ، فرياضة الرحمة هى مفتاح الحياة الأبدية .

وخلاصة التصوف اليونانى أن الله جوهر من العقل الخالص من شوائب الاجسام ، وأن التأمل فى الحقائق هو سبيل الوصول إلى الله .

وخلاصة التصوف العبرى « إذا كانت مخافة الله تاج الحكمة فهى أيسر لباس المسكين » .. وخلاصته المستعارة من فلاسفتهم مذهب فيلون الحكيم الذى يقول ان الله خلق العقل ليعمل به فى الموجودات ، ومنها الانسان .

وخلاصة التصوف المسيحى أن نجاة الروح لا تكون بغير نعمة من الله وبغير فداء .

وخلاصة التصوف الاسلامى شعبتان : شعبة تذهب إلى اعتزال الدنيا لانها باطل ، وتفنى فى الله لانه هو الحق دون غيره ، وشعبة أخرى لا تعتزل الدنيا لان الله سبحانه وتعالى يتجلى فيها ، وآياته التى يتجلى فيها ، هى سبيل الوصول إليه ، وهذه هى الصوفية المفضلة فى الاسلام : لا إهمال للدنيا ولا انحصار فيها ، بل نفاذ منها إلى الحق ، وإلى الكمال .

وخلاصة الخلاصات جميعا : أن الايمان سعادة الروح وأن المعرفة والبصيرة قوام السعادة .